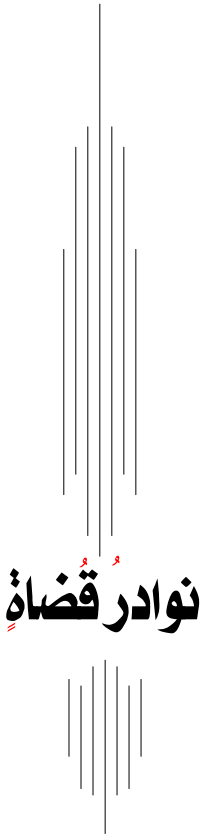
نوادرُ قُضاةٍ

يوسف محمد حسين

نوادر قضاة

قصص من التراث العربي

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر ، إعداد إدارة الشئون الفنية

حسين ، يوسف محمد

نوادر قضاة – قصص من التراث العربي / يوسف محمد حسين، ط١ - القاهرة : دار زهور المعرفة والبركة للنشر والتوزيع ، ١٤٤٤ / ١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٢ / ٢٠٢٣ م

ص ٨٠ - ١٤ × ٢١ سم

رقم الإيداع : ١٤٢٢٩ / ٢٠٢٢

تدمـــــــك : ٩٧٨ / ٩٧٧ / ٦٧٦٩ / ١٧ / ٥

١- قصص قصيرة - تراث عربي ٢- ٨١٧

الناشر

دار زهور المعرفة و البركة

٠١١٤٨٣٩٧٣٧٦

youssef.omar٦٦٢٨@gmail.com

إعداد وتنسيق

يوسف محمد حسين

٠١١٤٨٣٩٧٣٧٦

تحذير

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي محفوظة للمؤلف و لا يجوز إعادة طبع كل أو جزء من الكتاب أو خزنه في أي نظام مخزن للمعلومات واسترجاعها أو نقله على أي هيئة أو بأية وسيلة سواء كانت الكترونية أو شرائط ممغنطة أو ميكانيكية أو استنساخا أو تسجيلا أو غيرها إلا بإذن كتابي من المؤلف.

مقدمة

قَدْ صنَعَ الإسلامُ قُضاةً أضاؤوا بعَدْلِهم المشرِقَ والمغرِبَ، بلْ الدُّنيا كُلَّها، وأسهَمُوا بعِلمٍ يُنتَفِعُ بِهِ مَن بعدِهم، ومِنهُم مَنْ نَالَ الذِّكرَ فِي حَياتِه وبِعدُ مَمَاتِه، ومِنْهُم مَنْ طوَى الموتُ ذِكرَه ، ومِنْ هَؤلاء مَنْ كَانَتْ لديهِ مَواقفُ طريفةٌ تدلُّ بِجانِبِ عِلمِهِم علَى الدَّهاءِ والذّكاءِ فِي تَعامُلِهم مَعَ المواقفِ والتّي حاولَنا صياغةَ بعضِها مِنْ خِلالِ مجموعةٍ قصصيةٍ طريفةٍ فِي هذَا الكتابِ

يوسف محمد حسين

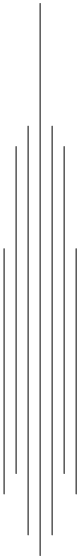

حِكْمَةُ قَاضٍ

(١) حِكْمَةُ قَاضٍ : اِبْنُ الْعَدِيمِ

فِي السَّاحَةِ الْكُبرَى لِدارِ القَضاء فِي مَدينَةِ حَلَبِ وَقَفَ الْعَديد مِمّنْ اخْتَصَمُوا،أو مِمّنْ جَاءَ لِمُشَاهَدة كَيفيةِ تَعَامُلِ ذَلكَ الْقَاضي اَلمَشْهُود بِحِكْمَته وَعَدْله مَعَ حَلِّ القْضَايَا.

وَمِنْ هَؤلاء مَجْمُوعَة مِنْ الْأُدَبَاء وَ الشُّعَرَاء ،مَثَلُ: بَهاءَ الدِّينِ يوسفَ، وَعبدُ المطلبِ الهاشمي ، وياقوتُ الحموِي ، وعمرَ بنُ طبرزدَ، دَارَ بَينَهُم حَديثٌ قَبلَ حُضورِ الْقاضي.

ـ بَهاءَ الدّينِ: لَمْ أتصوّرْ أنْ أجِدَكَ هُنَا عَبدَ المطلبِ بنَ هاشمِ.

ـ وَلِمَ لَا يَا بَهاءَ ، وقَدْ ذَاعَ صيتُ ذلكَ القْاضي شَرقًا وغَربًا.

ـ نَعمْ .إنَّ جَمالَ الدِّينِ بنَ العديمِ قَاضي مَدينة حَلبِ والذِّي وُلِدَ عَام ١١٩٢ميلاديًا ، اُشْتهرَ بَأَنَّهُ عَادلٌ خَبيرٌ بالأحكامِ ، كَمَا عُرِفَ عَنْهُ حِيلُهُ وَمَكْرُهُ ودَهاؤُهُ للوصولِ للحقائقِ.

ـ ياقوتُ الحموِي : هَذَا صحيحٌ يَا عمرَ ، فَهو منْ بيتٍ مشهورٍ منْ أهلِ حَلَبِ .. يَتوارثُون الفضلِ كَابرٍ عَنْ كَابرٍ ،

وهُو ممّنْ يُحبّ العلمَ ؛ حيثُ تنقّلَ لأماكنِ كثيرة للحصولِ علَى العلمِ كالعراق و الحجَاز ..

ـ عمرَ : نَعمْ.. نَعمْ .. فقدْ اطلعْتُ علَى العديد منْ مُؤلفاته كتذكرة ابنِ العديمِ، وبلوغِ الآمالِ ممّا حَوَى الكمالِ وهُو كتابٌ يضمّ مَجموعةً منْ الأشعارِ والموشحات،وكتابِ الإنصاف و التحرِي في دفعِ الظّلمِ والتّجرِي.

وهُنا صمتٌ سادَ حينَمَا دخلَ القاضي ، وحدثَ أنْ ادّعَى عنده مُدعٍ علَى آخرٍ بمبلغٍ. فلمّا أنكرَ المُدَّعَى عليه أخرجَ المُدعي وثيقةً فيها إقرارٌ منصورَ بنِ أبي جرادةَ بتسلمِ المبلغِ .

أنكرَ المدَّعَى عليه أنَّ الاسمَ المذكورَ(أبا جرادة)اسمُ أبيه.

ـ قالَ لَه القاضي ابنُ العديمِ : فمَا اسمُكَ أنتَ ؟

ـ قالَ: منصورٌ .

ـ قالَ : واسمُ أبيكَ.

ـ قالَ : هبةُ الله .

فسكتَ عنهُ القاضِيٌ ، وتشاغلَ بالحديثِ معَ مَنْ كَانَ عِنْدِه حتىَ طالَ ذلكَ ، وكانَ جليسُه يقرأُ عليه فِي صحيحِ البخارِي، ثُمّ إذَا بالقاضِي فجأةً يُنادِي: يا ابنَ أبي جرادة ؟

ـ فأجابَه المدَّعَى عليه : مَولَاي .

ـ فقالَ لَهُ : ادفعْ لغريمِكَ حقَّهُ.

***

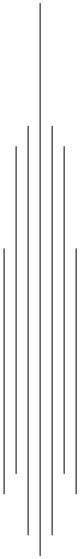

تدبيرٌ بِلَيلٍ

(٢) تَدبيرٌ بليلٍ : إياسُ بنُ معاويةَ

جلسَ النّاسُ في مجلسِ لإياسَ بنِ معاويـةَ ـ والـذِّي اُشـتهرَ بالفطنةِ والذكاء ؛ حيثُ يأتُونَ إليه منْ كُلِّ حَدبٍ وصَوبٍ.

وقـفَ رئـيسُ إقلـيمٍ بـبلادِ فـارسِ مُتسـائلًا: مَـا تقـولُ في المسكرِ؟!

ـ حرامٌ .

ـ ومَا وجهُ حُرمَتِه، وهُو لا يزيدُ عَنْ كَونِه تَمرٍ وماء غُليَـا عـلَى النّارِ ، وكلٌّ ذلكَ مُباحٌ لاشَئَ فِيه؟!

ـ أفَرَغْتَ منْ قولِكَ أمْ بَقيَ لديكَ مَا تقولُه؟!

ـ فَرغْتُ.

ـ لَو أخذْتُ كَفّاً منْ مَاءٍ وضَربْتُكَ بِه أكانَ يوجعُكَ؟!

ـ لا.

ـ ولَو أخذْتُ كفّاً منْ تُرابٍ فضربْتُكَ بِه أكانَ يُوجعُكَ؟!

- لا.

- ولَو أخذْتُ كَفّاً من تِبْنٍ فضربْتُكَ بِه أكانَ يوجعُكَ؟

- لا.

فَلَو أخذْتُ التُّرابَ مَطروحًا عَليه التِّبنُ والماءَ ثُمّ مَزجْتُها مَزجاً، ثُمّ جَعلْتُ الْكُتلةَ فِي الشَّمسِ حَتّى يَبِست ثُمّ ضَربْتُكَ بِها أكانَتْ تُوجعُكَ؟

- نَعمْ.. وقدْ تَقتلُني.

- هَكذَا شَأنُ الخمرِ ، فَهُو حِينَ جُمعَتْ أجزاؤُه وخُمِّرَ حَرُمَ.

وفي أثناء ذلكَ المجلسِ والنّقاشِ بَينَ إياسَ ذلكَ القاضي العادلِ وبينَ رئيسِ الإقليمِ الفارسي هَاجمَ مجموعةٌ منْ الجنودُ مَجلسَهم ، وقَبضُوا عَلَى قاضي المدينة. وعندَ سؤالِ الحاضِرين عَنْ السّببِ، فأجابَ أحدُهم: هذَا أمرٌ منْ والي البصرةِ عَديّ بنِ أرطأة.

اتجهُ الجمعُ نَحْوَ مَقَرَ والي المدينة، حتّى وصلُوا جميعًا ووقفُوا بينَ يديّ عَدي بنِ أرطأة .

ـ وهُنَا تَقدَّم الجاحظُ مِنْ الوالي ، وقالَ : كيفَ لعدي أنْ يُهِينَ قاضِيَ المدينة، ذلكَ الرجلَ فقيهَ البدنِ،صادقَ الحدسِ، عجيبَ الفراسة،ملهمًا،عفيفَ المطعمِ، وجيهًاعندَ الخلفاء.

ـ عبدُ اللهِ بنُ شُؤذبٍ: وإنْ كانَ يُولدُ بينَ النَّاسِ رجلٌ تامٌّ العقلِ كُلّ مائة عامٍ، فإنَّ منهم إياسَ.

ـ الإمامُ الذَّهبِي(شمسُ الدّينِ):إنَّه منْ الثِّقاتِ نبيلٌ،لم يُولَ القضاءَ إلا بذكائه وعقله وفصاحته وأحكامه.

ـ والي المدينة يَنظرَ إليهم جميعًا ثُمَّ يتوجهَ نَحوَ إياسَ قائلًا: يَا ابنِ معاويةَ كيفَ لا تُطيعُ أمرَ ولِي الأمرِ؟!

ـ كيفَ لي أنْ أُطيعَ مَخلُوقًا فِي مَعصيةِ الخَالقِ؟!

ـ لِمَ لَمْ تعملْ بانتصارِي للمهلبِ بنِ القاسمِ بنِ الهلالِي ؟! ألمْ يكنْ لكَ عقلًا؟!.

ـ ليّ عقلٌ أكلمُ الناسَ بنصفه و إذَا اختصمَ إليّ اثنَان جمعْتُ عقلِي.

وكيفَ أعملُ بِما يُغضبُ اللهَ ـ تَعالَى ـ وأحللُ ما حَرمَهُ، فقدْ طلَّق المهلبُ زوجتَه، فحكمْتُ بوقوعِ الطَّلاقِ البائنِ بينونة

كُبرَى؛حيثُ إنَّ الطَّلاقَ الثَّلاثَ بلفظ واحد في مجلس واحد يقعُ ثلاثاً،وأطلبُ منْ زَوجِ المهلبِ أنْ نَستمعَ إلى شهادتها في هذَا الأمرِ.

ـ تقدمَتْ أمُّ شعيبَ بنتِ محمد الطائي زوجِ المهلبِ بنِ القاسمِ الهلالي، ثُمَّ وجهَتْ وجهَها نَحوَ والي مدينة البصرة (عَدي بنِ أرطأة) قائلة: لقدْ كانَ المهلبُ ماجنًا يشربُ الخمرَ ، وقدْ طلبَ مني أنْ أشاركَهُ شَرابَه ، لكنِّي أبيتُ فعْلَ ذلكَ ، فَقَامَ منْ فورِه بوضع قدحٍ ممتلئٍ بالخمرِ وأقْسَمَ عَليَ: إني طالقٌ بالثلاث إنْ لمْ أشربْهُ.

وكانَ لَدي بعضُ النسوة في زيارتي حاولَنَ أنْ يحملنَني عَلَى شُرْبِ القدحِ محاولين تبريرَ الأمرِ، ولمَّا زادَنِي الأمرَ إلا إصراراً علَى عدمِ شُرْبِ الخمرِ، وقدْ نجاني اللهُ منْ فعلِ ذلكَ بأنْ مرّ طيْرٌ فكسرَ القدحَ ، فقمْتُ وحمدْتُ اللهَ أنْ خَلَصَني منْ ذلكَ الزّوجِ الذِّي يحثُني علَى مخالفة أمرِ الله ، ولمَّا عَلمَ أهلي طلبَوني فذهبْتُ.

وهُنَا يا عَدي جاءَكَ والدُ المهلبِ مُدعيًا بأنَّ ابنُه لمْ يفعلْ الطَّلاقَ،فأمرْتَ بأنْ أردَّ إلى زوجِي، فاضطررْتُ إلى أنْ ألجأ

لقاضي المدينة المشهود لَه عَدلُه ، فنصفَني، كمَا قالَ للمهلبِ: ولئن قربْتَها لأرجمنَّكَ..

وجدّ الوالي نفسَهُ في وضعٍ لا يُحسدُ عليه فنهضَ عازمًا الانصرافَ علَى أنْ يستكملَ في يومِ آخرٍ فانصرفَ الجميعُ.

عزمَ الوالي عزلَ القاضي بتهمة قذفِ المهلبِ، وأعدَّ شاهدين، وكانَ القاسمُ بنُ ربيعةَ ـ المرشحُ منْ قَبلِ لمنصبِ القضاء ـ موجوداً فاستحلفَهُ ألا يعلمُ إياسَ بِما دبّر لَه.

ولم يجدْ القاسمُ منْ وسيلة إلا أنْ مرّ على إياسَ عندَ عودته ليلاً .

ـ فقالُوا لَه :مَنْ؟

ـ قالَ: القاسمُ بنُ ربيعةَ ،كنْتُ عندَ الأميرِ فأحببْتُ ألّا أصلُ إلى منزلِي حتّى أمرّ بِكَ ..ومضَى لسبيله.

وقدْ فَهِمَ إياسُ بذكائه أنَّ الوالي دبّرَ لَه بليلٍ مُؤامرةً أحكمَتْ خُيوطُها فعزرَ هارباً إلى ولايةِ (واسط) ، وأحسنَ استضافتَه واليها (عمر بن هبيرة) وكلَّفَه بولايةَ سوقِ المدينة.

***

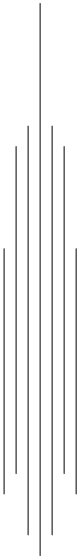

شَجَاعَةُ قَاضٍ

(٣) شَجَاعةُ قاضٍ: الشَّيبانِي

فِي إحدَى الحلقاتِ التِّي يَجتمعُ فيهَا طُلابِ العلمِ بإحدَى الْمدُنِ الكُبرَى التّي اُشْتهرَتْ بأنَّهَا كَعبةُ العلماء بالعراقِ، وهي مدينةُ (الْكُوفَة).

اجتمعَتْ مجموعةٌ ممّنْ تَلقُوا العلمَ علَى يدي محمد بنِ أبِي عبد الله الحسنِ بن فرقد الشَّيباني ـ منْ بيَنهِم: الإمامُ الشَّافعيّ وأبُو عُبيد الْقَاسمِ بنُ عبد السّلامِ، وهشَامُ بنُ عُبيد اللهِ الرّازِي، وأسدُ الدِّينِ بنُ الفراتِ فاتحُ صقليةَ، والإمامُ أحمدُ بنُ حنبلِ ـ يَرثُونَ مُعَلمَهُم .

ومَا لَهُم لَا يَرثُونَهُ وقدْ تَلقُوا علمًا ـ إمّا حُضوراً أو قراءةً أو شفاهةً ـ بَنُوا عَليه مذاهبَهُم وَفقههم.

بدأ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلِ بالحديث فقالَ: رَحِمَ اللهُ الشَّيباني فقدْ أَثْرَانَا بالعلمِ، فقدْ قِيلَ يومًا لِيّ : مِنْ أينَ لكَ هذه المسائلِ الدَّقيقة؟ فقلْتُ:هي مِنْ كُتبِ محمد بنِ الحسنِ.

اطلَعْتُ عَلَى كُتبه المتعددة، ومنْهَا : الأسديةُ في الفقه الإسلامي، الجامعُ الصغيرُ في الفقه، والجامعُ الكبيرُ للمسائلِ الفقهية الكُبرَى، والسّيرُ الصّغيرُ كتابٌ يَروِي فيه ما سمعَهُ عَنْ أبي حنيفةَ، والسّيرُ الكبيرُ كتابٌ في العلاقات الدَّولية وأحكامِ الجهاد.. وغيرُهَا منْ مُؤلفاتِ ذلكَ العالمِ الجليلِ.

وهُنَا قالَ أبُو عُبيد القَاسمِ بنُ سلامٍ: مَا رأيتُ أعلمَ بكتابِ اللهِ منْهُ، وكأنّ الله أعدَّهُ منذُ أنْ وُلِدَ في عَامِ ١٣٢ هجريّا أنْ يكونَ فقيهًا وعالمًا ربانيًا ، فهُو منْ أهلِ شيبانَ في الجزيرة ، انتقلَ والدُه إلى دمشقَ ثُمَّ إلى (الواسطةَ) بالعراقِ وأنجبَ فيها ذلكَ الفقيهَ، والذّي انتقلَ به إلَى مَدينة الكُوفة.

وفي الكوفة التقَى بمعلمه أبي حَنيفةَ؛وسنّهُ الرّابعة عشرة، والذّي قالَ عنْهُ : إنَّ هذَا الصّبي يَفلحُ إنْ شَاءَ اللهُ.

وحينَما استوفَى العلمَ عنْهُ انتقلَ إلَى المدينة المنورة؛ ليستكملَ علمَه علَى يدي الإمامِ مالك الذِّي ذاعَتْ شُهرتُه فأخذَ عنْهُ كتابَهُ المسمّى (الموطأ).

وهُنَا تحدَّثَ أسدُ بنُ الفراتِ عَنْ اتصاله بالإمامِ مالـك ثُـمّ سفرَه إلى الْعِراَق؛حيثُ لَزِمَ محمدً بنَ الحسنِ الشَّيبانِي، وذَكَرَ أنَّه قالَ للشّيبانِي: إنِّي غريبٌ قليلُ النَّفقة، والسّماعُ منكَ نَـزْرٌ، والطَّلـبُ عنـدَكَ مُثـيرٌ فَـمَا حيلتـي، فقـالَ لي : اسـمعْ مـنْ العراقيين بالنَّهارِ، وقدْ جعلْتُ لكَ اللَّيلَ وحـدَك فتـأتِي فتبيـتَ عندي وأسمعُكَ .

فكنْتُ أبيتُ عندَه وكنْتُ مَعَـه فِي بيـتٍ فِي سَـقيفة، وكـانَ يسكنُ في الأعلَى، يَنزلُ إليّ ويجعلُ بينَ يدَيه قَدحًا فيه مَاءٌ، ثُمّ يَأخذُ في القراءة، فإذَا طالَ عليه اللّيـلُ ورآني قـدْ نعسْـتُ مَـلَأ يدَهُ ونضحَ بِه في وجهِي فأنتبهُ، وكانَ ذلكَ دَأبِي ودَأبـهُ حتَّـى أتيتَ علَى مَا أريدُ منْ السّماعِ عليه.

تَوجه ناحيةَ الإمامِ الشّافعي، وقالَ لَه : وأنتَ يـا شَـافعي نعلمُ أنَّكَ لازمتَهُ فترةً منْ الزّمنِ ، وأخذْتَ عَنه الكثيرَ. فَكَيـفَ التقيتَ بِه ؟!

-الإمامُ الشَّافعي: لقدْ التقيتَ بمعلمنَا مَرتين : الأولَى، في المدينة المنورة حينَما كانَ يأخذُ الموطأ منْ الإمامِ مَالك، والثَّانية، حينَما عادَ إلى العراقِ بعدَ استكمالِ رحلاته التَّعليمية والعلمية.

وهُنا صَمتَ الإمامَ برهةً وكأنَّهُ تذكَّرَ شيئًا غيّرَ منْ وجههِ وبدَتْ حزينةً ملامحُهُ.

ـ فسألَه أبُو عُبيد القاسمِ بنُ سلامٍ: مَا لكَ يا شَافعي؟! ومَا الذّي جعلَكَ تَحزنُ بِهذَا الشَّكلِ ؟!

ـ فأجابَهُ الشَّافعي : تذكَّرتُ محنتي معَ هارونَ الرّشيد.

ـ وسألَهُ أبُو عُبيد القاسمُ:أخبرنَا الصِّدقَ فيهَا.

ـ الشَّافعي :حينَما كُنْتُ فِي الْيمَن قَدَّرَني النَّاسُ هناكَ ممّا دفعَ الحاكمُ هناكَ يتهمُني بالخروجِ عَنْ طاعة الرّشيد، وحذَّرَهُ مني ، فأمرَ هَارُون بإلقاء القَبضِ عَليّ وساقوني إليه مُكبلًا بالحديد.

وحينَما وصلْتُ إلَى هُناكَ لمْ يلقاني إلا بعدَ أنْ سجنوني أولا ثُمّ بعدَ عدة أيامٍ حاكمَني الرّشيدُ ، وقدْ نلْتُ براءتَي بفضلِ معلمي الشَّيباني الذِّي كانَ في ذلكَ الوقتِ قاضيًا ومنْ خاصة هَارون الرّشيد المقربين ، فقدْ كانَ يعرفُ قَدْري في العلمِ، ولمْ يشهدْ عليّ مَا يُغضبُ الله ورسوله، وكانَتْ هَذه المرةُ الثَّانيةُ التّي التقيتُه ثُمّ لازمْتَه ثلاثةَ أعوامٍ ونصْف.

اسْتطردَ الشَّافعيّ قائلًا: أخذْتُ منْه وِقْرَ بَعيرٍ منْ علْمٍ، ومَا رأيتُ رجلًا سمينًا أفهمُ منْهُ - أو أخفَّ روحًا منهُ، وكانَ يَملأُ القلبَ والعينَ ، إذَا تكلّمَ خُيّل لكَ أنَّ القرآنَ نزلَ بلغته .

وقالَ: مَا رأيتُ أحدًا سُئلَ عَنْ مسألةٍ فيها نظرٌ إلا رأيتَ الكراهيةَ في وجهِه إلا محمدًا ابنَ الحسنِ .

ومازالَ يَسْتطردُ : ومَا رأيتَ رجلًا أعلمَ بالحلالِ والحرامِ، والعللِ، والنّاسخَ والمنسوخَ منْ محمدِ بنِ الحسنِ، ولَو أنصفَ النَّاسُ لعلمُوا أنَّهم لم يرَوا مثلَ محمدِ بنِ الحسنِ، مَا جالسْتُ

فَقيهًا قَطْ أفقهَ ولا أفتقَ لسانًا بالفقه منْه، إنَّه كانَ يُحسنُ منْ الفقه وأسبابه أشياءَ تعجزُ عَنْها الأكابرَ .

ـ وقالَ هشامُ بنُ عبيد الله الرّازِي: للشَّيباني مواقفٌ تُحسَبُ لَه تدلُّ عَلَى شَجاعته:

فقدْ كُنَّا مَعَهُ إذْ أقبلَ الرّشيدُ فقامَ إليه النَّاسُ كُلُّهم إلا محمدًا بنُ الحسنِ.

ـ فسألَهُ الرّشيدُ: مَا لَكَ لَمْ تقمْ معَ النّاسِ؟!

ــ كرهْتُ أنْ أخرجَ عَنْ الطَّبقة التّي جعلْتَني فيهَا، إنَّك أهلْتَني للعلمِ فكرهْتُ أنْ أخرجَ منهُ إلَى طبقة الخدمة، وابنُ عمكَ - صلَّى الله عليه وسلَّم - قالَ: مَنْ أحبّ أنْ يتمثلَ لَه الرَجالُ قياماً فليتبوّأ مقعدَه منْ النَّار ، وأنَّه إنَّمَا أرادَ بذلكَ العلماءَ، فمَن قامَ بحقِّ الخدمة وإعزازِ الملك فهُو هيبةٌ للعدُو، ومَنْ قَعدَ اتَّبع السّنةَ التّي عنْكُم أخذَتْ فهُو زينٌ لَكُم .

-فقالَ الرّشيدُ: صدقْتَ يا محمدُ.

انتهَى الشَّافعي منْ حَديثه فنهضَ محمدٌ بنُ سماعة ثُمّ قالَ : رحمَه اللهُ حينما تَوفاه في عام ١٨٩هجريًّا قالَ فيه الرّشيدُ : لقدْ دَفنا الفقهَ بالريّ؟ وهُو مكانٌ في إيران دُفنَ فيه الإمامُ الفقيهُ الشَّيباني.

***

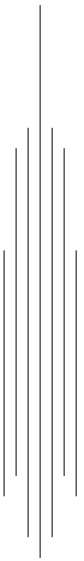

نِعْمَ القَاضِي أنْتَ

(٤) نِعْمَ القَاضِي أنتَ: كَعْبُ بنُ سُور

سعتْ امرأةٌ إلَى مقرَ عُمَرَ بنِ الخطابِ حتَّى وصلَتْ فَوجدَتْ رجلًا سألَتْه : مَنْ مَعَ أميرِ المؤمنين عُمرَ ؟

ـ الرّجلُ : ليسَ مَعَه إلا كعبٌ بنُ سورٍ .

ـ مَن كعبُ هَذا ؟!

ـ هُو ابنُ سورِ بنِ بكرِ بنِ الأزدي، مِنْ قبيلة مِنْ أهلِ الْيَمَن...وهُو رجلٌ معروفٌ بالخيرِ والصّلاحِ ...

دخلَتْ علَى أميرِ المؤمنين ، فألقَتْ السّلامَ ، وردَّ بأحسنَ منهَا أميرُ المؤمنين و كعبٌ.

ـ فقالَتْ: يَا أميرَ المؤمنين: مَا رأيتَ رَجُلًا قطْ أفضلَ مِنْ زوجِي، إنَّه ليبيتُ ليلَه قائمًا، ويظلُّ نهارَه صائمًا في اليومِ الحارِ مَا يفطرَ.

ـ فاستغفرَ لهَا وأثنَى علَيها،ثُمَّ قالَ: مِثلُكِ أثنَى الخيرَ..

هُنا استحيتْ المرأةُ فقامَتْ راجعةً.

ـ فقالَ كعبُ: يا أميرَ المؤمنين، هَلَا أعنْتَ المرأةَ علَى زوجِها أنْ جاءَتْكَ تستعديكَ؟!

ـ أو ذاكَ أرادَتْ؟ !

ـ نَعَمْ. يَا أميرَ المؤمنين.

ـ ردُوا إليّ تلكَ المرأةَ.

وحينَما عادَتْ إلَى عُمرَ، قالَ: لا بأسَ بالحقِّ أنْ تقولِيه.إنَّ هذَا زَعمَ أنَّكِ جِئتِ تشتكِين زوجَك، أنّه يجتنبُ فِراشَك.

ـ قالَتْ:أجلْ.إنّي امرأةٌ شابةٌ، أتتبعُ ما يتبعُ النِّساءَ.

ـ فأرسلَ عمرَ بنُ الخطابِ إلى زوجِها فجاءَه.

ـ اقضِ بينَهما يا كعبُ، فإنَّكَ فهمْتَ منْ أمرِهما مَا لمْ أفهمْهُ.

ـ أميرُ المؤمنين أحقَّ أنْ يقضِي بينَهُما.

ـ يا كعبُ عزمتُ عليكَ لتقضينَّ بينَهما .

ـ سأفعلُ يا أميرَ المؤمنين طالمَا أردْتَ ذلكَ،فإنّي أرَى كأنَّها امرأةٌ عليها ثلاثُ نسوةٍ هي رابعتُهن فأقضي لَه بثلاثة أيامٍ وليالِيهن، يتعبدُ فيهن، ولهَا يومٌ وليلةٌ [ليسَ لَه فيها إلا أداءَ الفريضة].

ـ فقالَ عمرَ: واللهِ ما رأيكُ الأولُ بأعجبِ منْ الآخرِ، اذهبْ فأنتَ قاضٍ علَى أهلِ الْبَصرة، فنعْمَ القَاضي أنتَ؛حيثُ كنْتُ أطلبُ فيمَنْ يقيمُ أمرَ اللهِ بالفصلِ بينَ النّاسِ ثلاثَ خصالٍ:

لا يصانعُ،ولا يضارعُ ـ أي يُشبهُ فعلُه الرياءَ، ولا يتبعُ المطامعَ .

وقدْ استبنْتُ بالتجربةِ توافُرَ هذهِ المواصفاتِ فيكَ؛ لذَا ولَّيتُكَ قضاءَ البصرة.

***

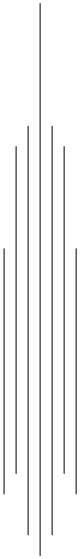

سُلطانُ القضاةِ

(٥) سُطانُ القُضاةِ والعلماءِ: العزُّ بنُ عبدِالسلامِ

اعتلَى منبرَ المسجدِ الأمويِّ الكبيرِ في دمشقِ وأخذَ يسترسلُ في خطبتِه مهاجمًا الصّالحَ إسماعيلَ حاكمَ دمشقَ؛ لتحالُفِه معَ الفرنج ضدَّ المصرِيين تحتَ قيادةِ الصّالحِ نجم الدّين أيوب ، فقالَ :

ـ إنَّ الطالحَ إسماعيلَ خانَ اللهَ ورسولَه وثقةَ المسلمين وأنَّه لا ولايةَ لَهُ عندَمَا تحالفَ معَ الصّليبِيين ضدَّ ابنِ أخيه نجْم الدِّينِ،ومكّنهم منْ(صيدا)،وقلعة(الشّقيف)، فاللهُم أبرمْ لهذه الأمة إبرامَ رشدٍ تَعزّ فيه أولياءَك وتذلُّ فيه أعداءَكَ ويُعملُ فيه بطاعتِكَ ويُنهى فيه عَنِ معصيتِك.

ـ عبدُ اللّطيفِ بنُ العزِّ: يا أبتِ أخشَى عليكَ ظُلمَ سُلطانِ دمشقَ منْ تلكَ الخطبة.

ـ العزّ: ومتَى نَخْشَى في الله لومةَ اللّائمِ، والله الذِّي لا إلهَ إلا هُو لَنْ نقضِي إلا بالحقِّ،والحقَّ هُو خيانةُ الصالحِ إسماعيلِ حينمَا تعاونَ معَ الفرنجِ ضدّ إخواننا منْ المصرِيين.

ـ سيفُ الدِّينِ قُطز:يا معلمي،نعلمُ أنَّ هذَا سيثيرُ غضبَ إسماعيلَ لكنْ علينَا يا عبدَ اللّطيف أنْ نُدركَ الحديثَ الشّريفَ: "..... وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ..".

ومَا إنْ عَلِمَ إسماعيلُ بِفتوَى الشَّيخِ العزِّ غَضبَ وقالَ : لقدْ عزلْتَهُ منْ الخطابة، ثُمّ أمرَ بالقبضِ عليه وسجنَهُ.

وحينَما حدثَ هَذَا، اتجهَ صَديقُه ابنُ الزّعيمِ نَحوَ الصّالحِ إسماعيلِ ؛ لينقذَ صَديقَه ، فأخبرَهُ :

ـ إنَّ مَا فعلْتَه اليومَ أيّها السلطانُ سيكونُ لَه مغبتُه وأثرُه ، فاعملْ إلى إصلاحِ الأمرِ ولا تزدْ منْ حبسِ الشَّيخِ.

ـ إسماعيلُ : وما الرأيُ عندكَ في الشَّيخِ؟!

ـ ابن الزعيمُ: أطلقَ سراحَ الشَّيخِ حتى لا يزدادُ غضبُ الناسِ.

ـ إسماعيلُ: أفرجُوا عَنْهُ ، لكنْ ألزمُوه بيتَه ولا يُغادرُه.

ظلَّ الشَّيخُ محددَ الإقامةِ في منزلِه، حتَّى زارَه ابنُ الزعيمِ يومًا؛فنصحَه بطلبِ مغادرةِ البلادِ وسَوفَ يفعلُ إسماعيلُ

ذلكَ تجنُبًا لما قدْ تسببَهُ لَه منْ مشكلات، ففعلَ الشَّيخُ بأنْ طلبَ مغادرةَ البلادِ إلى مصرَ، ووافقَ إسماعيلُ وغادرَ الشَّيخُ .

وهُو يُغادرُ لفتَ انتباهُه صوتَ صهيلِ جوادٍ يُسارعُ الريحَ وعليه فارسٌ يُنادي الشَّيخَ ليودّعَهُ ، وهُو تلميذه قطزُ الذّي حرصَ علَى توديعِ معلمه .

ـ قطز: في أمانِ اللهِ سَيدي ، ولَنْ نفتقدَكَ .. فأنتَ معَنا بتعاليمكَ لَنا عنْ الحقِّ والخيرِ، والوقوفِ أمامَ الظّلمِ لتحقيقِ العدلِ، والحرصِ على الحريةِ.

وهُنَا يلوحُ الشيّخُ بيدِه مُلقيًا السّلامَ على تلميذِه وسارَ مُتجهًا لمصرَ حتَّى ابتلعَتْه الطريقُ.

***

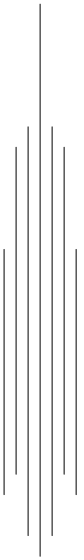

قَاضِي القُضاةِ

(٦) قاضِي القضاةِ:أبُو يوسف يعقوب بن إبراهيم

في صَبيحة يَوْمِ الخميس ببغدادَ تَلَاقَى أصحابُ العلمِ؛ ليقومُوا بِزيارة تلميذ أبي حنيفة المريض.

دخلَ جميعُهم علَى أبي يوسفَ : يَعقوبَ بنَ إبراهيمَ بنَ حبيبِ ، ألقُوا السّلامَ عَليه فردَّ بأحسنَ منْهُ، ثُمّ حَاولَ أنْ يستقيمَ في جِلْسَته لكنّه لم يستطعْ فِعْلَ ذلكَ.

هُنَا ابْتَسمَ أبُو حنيفةَ وبادرَ بالكلامِ : كَيفَ حالَ تلميذنَا النَّجيبِ ؟هلْ الصّغيرُ كَبُرَ ؛ليمنعَهُ مرضُهُ للقاء الأصحابِ في مجلسنَا العلمي؟!.

ـ أبُويوسفَ: الحمدُ للهِ علَى مايُصيبنَا منْ مكاره، و لايمنعُني عنْ لقاء الأحبّة و حُضورِ مجلسِ العلمِ إلا اللهُ،بيدِه المشيئةُ؛حيثُ أعاقَني كَسْرِ القدمِ عن الحضورِ

ـ وهُنَا يَتوجهُ أحمدُ بنِ حنبلِ إليهِ بالقولِ : قُلْ لَنا يَا أبَا يوسفَ ـ وأنتَ المنصفُ في الحديثِ ـ مَا هَدفُكَ مِنْ كتابِكَ (الخراجِ) الذَّي ألَّفْتَه حديثًا ؟!.

- مالكُ يقولُ مازحًا: هلْ سننقلُ المجلسَ هُنَا .. دعُوا الرّجُلَ يَسترحْ .

ـ الحسنُ بنُ زيادِ:ومَا علاقةُ اللِّسانِ بالقَدمِ يَا مالكُ؟! فالقدمُ لنْ يعيقَ اللسانَ عنْ الكلامِ.

ـ يا حسنُ ، ألا تحفظُ وتفهمُ قولَ رسولِ اللهِ ـ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ـ حينما تحدثَ عنْ تَرابُطِ المؤمنين وتعاونهم واتحادهم، وتأثيرِ الفردِ فيهم على الآخرِين واستعملَ تشبيهَهُ الرائعَ؛ ليبينَ هذَا التأثيرَ:

"... مَثَلُ الجسدِ إذَا اشتكَى منْهُ عضوٌ تداعَى لَهُ سائرِ الجسدِ بالسّهرِ والحُمَى".

ـ أبُو يوسفَ : الحمدُ لله ، لنْ يُعيقَني عنْ الكلامِ القدمُ ، يا ابنَ حنبلِ، كتابُ الخراجِ حاولْتُ أنْ أبيّنَ فيه الموارِدَ الماليةَ للدولةِ الإسلاميةِ.

ـ الحسنُ بنُ زيادِ: قُلْ لنَا يا أبَا يوسفَ هلْ كانَ أبُو حنيفةَ هُو أولُ مَنْ تتلْمَذُ على يديه؟!

ـ أبو يوسف: تَتَلْمَذْتُ علَى يدِ محمدِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ أبي ليلَى تسع سنين، وتولَّى معلمي القَضاءَ فانتقلْتُ إلى أبي حنيفةَ، فحرصْتُ على مجلسه.

كانَ حالِ في تلكَ الفترة كجال طالبِ العلم، كُنْتُ أطلُبُ الحديثَ والفقهَ وأنا مقلٌّ، فجاءَ أبي يومًا وأنَا عندَ أبي حنيفةَ وقالَ: يا بنيّ، لا تمدنَّ رجلك مَع أبي حنيفةَ، فإنَّ خُبزَهُ مشوِي، وأنتَ محتاجٌ إلى المعاشِ، فآثَرْتُ طاعةَ أبي، فتفقَّدني أبو حنيفةَ فجعلْتُ أتعاهَد مجلسَه.

ـ وهُنَا يَمزحُ ابنُ حنبلِ : قُلْتَ لنَا السّببَ في كَسرِ قدمك أنَّكَ حاولْتَ أنْ تمدَّها في مجلسِ أبي حنيفةَ.

وهُنَا عَلَتْ أصواتُ الحضورِ ضحكًا لفُكَاهة أحمدَ بنِ حنبلِ.

ـ الإمامُ مالكُ: يَا أخوة لم يكنْ في أصحابِ أبي حنيفةَ مِثْلُ أبي يوسفَ علمًا وفقهًا ومعرفةً، لولاه لمْ يُذكَر أبُو حنيفةَ ولا ابن أبي ليلى،لكنَّه نشرَ علمَهُما.

ـ الطبرِي :أبُو يوسفَ يحضرَ المحدثَ فيحفظُ خمسين أو ستين حَديثًا، ثُمّ يقومُ ويمليها علَى النّاسِ كمَا سمعَها.

ـ مالكُ : يا أبَا حنيفةَ لمْ نسمعْ لكَ قولًا في تلميذك الذّي مُنعَ منْ مَدِّ قدمه في حضرتِكَ ، وهُو الآنَ يمدُّها أمامَكَ.

ـ أبو حنيفةَ: نظرَ إلى أبي يوسفَ مشيرًا بإصبعه : إنْ يمتْ هذَا الفتَى فهُو أعلمُ مَنْ عليها، وأومأ إلى الأرض .

ـ الطبرِي : وأنتَ قاضي القضاة يا أبا يوسفَ حدّثْنَا عن طرافة موقف لكَ في القضاء.

ـ الحسنُ بنُ زيادٍ: دعُوني أرحّ الرّجلَ وأتحدثُ عنَهُ فأنَا أعرفُ عنْهُ الكثيرَ.

إنَّه تَولَّى القضاءَ في زمنِ الخليفةِ المهديَّ، والهادي، ووُثِقْتُ الصلةَ بينَه وبينَ هَارُون الرّشيد فولاَّه قضاءَ البلادِ كُلِّها، وأطلقَ عليهِ(قاضي القضاة)، وهُو أوّلُ مَن أُطلِق عليه ذلكَ اللّقبُ، وبقَي في ذلكَ المنصبِ إلى الآنَ.

كُنَّا يومًا ببابِ أبي يوسفَ إذْ أقبلَ منْ دارِ الرّشيدِ يبتسمُ، فقالَ: حدثَتْ مسألةٌ في دارِ أميرِ المؤمنين، وهي أنَّ قاضيًا بأرمينيا اختصمَ إليه جَارِيتان في جَرّتين قدْ استقَتا ماءَ، فوضعَتا الجرّتين لتستريحَا فسقطَتْ جرّةُ إحداهُما علَى جرّةِ الأخرَى فانكسرتَا، فاختَصمَتَا إلى القاضي، فقالَتْ كلُّ واحدةٍ منهُما: سقطَتْ جرّةُ هذهِ على جرّتي وكسرَتْهَا،

فجعلَ القاضي ينظُرُ إليهما لا يعرفُ المدَّعي منْهما مَنْ المدَّعَى عليه.

قالَ للقيمِ: أخِّرهُما! ثُمَّ صاحَتا: واويحتا! فقالَ للقيمِ: اذهبْ فاشترِ لهما جرّتَين وأرضٍ كلأً منهما.

فلمَّا كان العَشِيّ قالَ لرجلٍ كانَ يأنسُ بِهِ: ماذَا يقولُ النَّاسُ ويخوضُون فيه منْ أمرِنَا؟

ـ قالَ: يقولُون: إنَّ القاضي لمْ يُحسنْ أنْ يحكمَ في جرّتين حتَّى غرمَهما!

ـ فقالَ: سبحانَ الله!أفَلا يرضُون مني أنْ أحكمَ فيما أحسنُ، وأغرمُ فيما لا أحسنُ؟

ـ قالَ أبو يوسفَ: يا أميرَ المؤمنين، هَذا رجلٌ عاقلٌ فزِدْ في أرزاقه للغَرامات ألفَ درهم كُلَّ شهرٍ.

ـ فقلْنَا لأبي يوسفَ: كيفَ جوابُ هذه المسألة؟!

ـ قالَ: إنْ كانَتَا وضعَتا الجرَّتين في مستراحٍ للمسلمين فكلُّ واحدةٌ منْهُما جاعلةً جرّتها في حقِّها غير جَانية على صاحبتها، وعلى كُلِّ واحدة منهما قيمةُ جرّةِ صاحبتها، وإنْ كانَتْ

إحداهما في مستراحِ والأخرَى في غيرِ المستراحِ، فالتِّي في غيرِ المستراحِ جَانيةً عَلى صاحبتِها ، فأبو يوسفَ كانَ ينصفُ مَنْ يعمَلُ معَه منْ القُضاةِ وإنْ خالَفَهم في الرأي.

وهُنَا ارتسمَتْ الابتسامةُ على وجوهِ الضِّيوفِ وهمّوا بالقيامِ للانصرافِ.

***

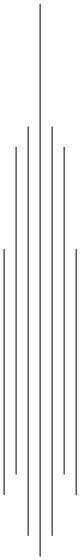

أقْضَى القُضاةِ

(٧) أقضَى القضاةِ وشَاهنشاه: اَلْمَاوردي

امتطَى جَوادَه وأخذَ ينطلقُ نحَو دارِ الوزيرِ (جلالِ الدولة أبي الفتحِ بنِ ألبِ أرْسلَان منْ سَلاجِقَة العراق؛ ليلبي طلبَه حينَما أرسلَ لَهُ بالحضورِ.

كَانَتْ هُنَاكَ علاقةٌ طيبةٌ بينَه وبينَ جلالِ الدولة، فهُو منْ أخصَ النَّاسِ قُرباً منْه، وكانَ يترددُ على دارِه، فامتنعَ منْ زيارتِه ولزمَ دارَه.

-الماوردي : السّلامُ عَلى مَولانَا جلالِ الدَّولة.

-جلالُ الدَّولة: وعليكمُ السّلامُ ورحمةُ الله وبركاته.

- الماوردي : فيمَ أردْتَني سيدَي الوزيرَ؟!

- جلالُ الدولة: قدْ علمَ كُلُّ وأحد أنَّكَ منْ أكثرِ الفقهاء مَالاً وجَاهاً وقُرباً منَّا.

وقدْ خالَفْتَهُم فيما خالَفَ هَوَاي، ولمْ تفعلْ ذلكَ إلا لعدمِ المحاباة منك وإتباعِ الحقِّ، وقدْ بانَ لي موضعُكَ من الدِّينِ ومكانُكَ من العلمِ، وجعلْتُ جزاءَ ذلكَ بَأنْ أدْخلْتُكَ إلىّ وحدَكَ، وجَعَلْتُ الحاضرِين إليكَ؛ ليتحققُوا عودى إلَى مَا تُحبّ.

- الماوردي : لقدْ بَنَيتُ فتاوَى عَلى أساسِ شرعيّ ، وليسَ علَى هَوَى.

- جلالُ الدَّولة : لقدْ أجازَ غيرُكَ عكسَ مَا أفتيتَ، كالطّبري والقاضي البيضاوي وأبو القاسمِ الكوفي. لقدْ أفتَى القضاةُ بجوازِ تسمّية الوزيرِ جلالِ الدّولة (شاهنشاه) أي ملك الملوك.

-الماوردي : لقدْ استندْتُ إلى حَديثِ النَّبي ـ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ـ :«إنَّ أخنعَ اسمٍ عندَ الله. رجلٌ تسمّى مَلك الأملاك، لا مَلكُ الأملاك إلا الله».

- جلالُ الدَّولة: أعلمُ أنَّهُ قدْ نتجَ عَنْ اشتغالكَ بالقضاء درسَك واقعَ حياةِ النّاسِ، ومشاكلِهُم، والتعمقِ في دراسة الأحكامِ الفقهية والإفادة منْها في إصدارِ أحكامه.

وأعلمُ أنَّكَ لكَ الفضلُ في جَعْلِ القضاءَ مستقلًا بأنْ جعلْتَ لَهُ ديوانَهُ الخاصّ يعملُ علَى شئونِ القضاة ومَنْ يعملُون معَهم.

وأعلمُ أنَّكَ وضعْتَ شُروطًا قاسيةً في الإنسانِ؛ ليكونَ قاضيًا، منها :

أنْ يكونَ رجلًا ، وأنْ يكونَ صحيحَ التّمييزِ ، فطنًا ، ذكيًا ، بعيدًا عنْ السّهوِ والغفلةِ ، أنْ يكونَ حُرًا ، عَدلاً، السّلامةَ في السّمعِ والبصرِ؛ ليصحَ بهما إثباتَ الحقوقِ، فإنْ كانَ ضَريرًا فولايتُه القضاء باطلةٌ ، عالماً بالأحكامِ الشَّرعيةِ ؛ وهِي الكتابُ والسّنةُ والإجماعُ والقياسُ.

ويجوزُ للقاضي أنْ يأخذَ بأي مَذهبٍ منْ المذاهبِ تأكيدًا لمعنَى الاجتهادِ الَّذي يِجبُ أنْ يكونَ للقاضي في جَميعِ أحكامه، وسُرعةِ الفصلِ في الْقَضَايَا ، وألا يُقبلَ علَى قبولِ الرَشَا.

ولهذَا الفضلِ لقدْ ارتضيتَ برأيكَ فيما أفتيتَ بِهِ في عدمِ جوازِ إطلاقِ ذلكَ اللّقبِ " شَاهنشَاه".

خَرجَ أبُو الحسنِ علِي بنُ محمد بنُ حبيبِ الماوردي منْ دارِ جلالِ الدَّولةِ وكَأنَّهُ في حربِ استطاعَ أنْ ينتزعَ النَّصرَ فيها، وقَدْ ارتاحَ قلبَه لأنَّهُ وُفِقَ في إرشادِ جلالِ الدَّولةِ لما هُو صحيحٌ.

***

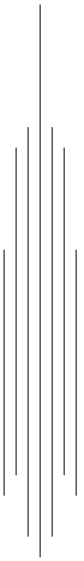

قَبَلْتٌ شِهَادته

(٨) قَبِلْتُ شِهَادَتَهُ : أَبُو شِبْرمةَ

فِي حلقة دراسية حولَ القضاء وأهميته وشروطه اجتمعَ عددٌ منْ القضاة يتدارسُون ، يتحاورُون ... وفي أثناء ذلكَ الدَّرسِ ،لاحظَ الحارثُ العلكِي تَأخُّرَ صديقه عبدالله بنِ شبرمةَ بنِ طفيلِ بنِ حسّانِ الضَّبِي، الملقبِ "بأبي شبرمةَ"، فقالَ: ليسَتْ عادتَه التَّأخُّرَ عَنْ مجلسنَا هذَا.

- أَبُو المغيرةَ : منذُ أنْ عيّنَهُ للقضاء أَبُو جعفرِ المنصورِ علَى الكوفة، وهُو قدْ انشغلَ كثيراً بهذَا الأمرِ.

- الحارثُ العلكِي: يستحقَّ أَبُو شبرمةَ ذلكَ المنصبِ، حيثُ إنَّهُ عفيفٌ، صارمٌ ، عاقلٌ ، خيّرٌ ، يشبهُ النَّسّاكَ، وشاعرٌ، كريمٌ ، روَى منْ الأحاديثِ خمسين حديثًا ، ولا ننسَى أنَّهُ منْ أصحابِ علي بنِ الحسينِ ـ عليه السّلامُ .

- فضيلُ بنُ غزوان : إنَّهُ لا يضنَّ بوقته لخدمة القضاء، فكنَّا نجلسُ أنا وابنُ شبرمةَ والحارثُ بنُ يزيدُ الْعلكِي والمغيرةُ والقعقاعُ بنُ يزيدُ باللّيلِ نتذاكرَ الفقهَ فربّما لمْ نقمْ حتَّى نسمعَ النداءَ بالفجرِ.

- الحارثُ العلكي : كنْتُ إذَا اجتمعْتُ أنَا وابنُ شبرمةَ علَى مسألة لم نبالِ مَنْ خالَفْنَا.

- أبُو المغيرة : كنْتُ أمرّ بالحارث العلكِي وأبي شبرمةَ فأجدُهُما يتذاكرَان القضاءَ، فأقولُ: بهذه السّاعة أمّا يكفيكُم مَا يكونُ منكُم في النّهارِ حتَّى تذكرَوه بهذه السّاعة أيضًا.

عندئذ توقفَ الجميعُ عَنْ الكلامِ؛ ليستمعَ لخطوات تقتربُ من بابِ الحجرة التّي يتدارسُون فيها الفقهَ والقضاءَ .. تزدادُ أصواتُ تلكَ الخطوات .. حتَّى دخلَتْ عليهم إنَّها لصديقهم المنتظرِ ، والَّذي بادرَهم بقوله : السّلامُ عليكُم ورحمةُ الله وبركاته.

- فردّ الجميعُ : وعليكمُ السّلامُ ورحمةُ الله وبركاته.

- فضيلُ بنُ غزوان: مَا الَّذي جعلَكَ تتأخرَ يا أبا شبرمةَ، ليسَتْ عادتُك التَّأخيرَ؟!

- أبو شبرمةَ : عجبْتُ للنّاسِ يحتمُون منْ الطَّعامِ مخافةَ الدَّاء ولا يحتمُون من الذّنوبِ مخافةَ النّارِ.

- الحارثُ العلكِي: خيرٌ يا أبَا شبرمةَ ، ماذَا حدثَ ؛ لتقولَ ذلكَ؟!

- دخلَ رجلٌ علىّ ليشهدَ في قضيةٍ. فقلْتُ لَه: لا أقبلُ شهادتَكَ .

- ولِمَ؟!

- بلغني أنَّ جاريةً غَنّتْ في مجلسٍ كنتَ فيهِ، فقلتَ لها: أحسنتِ!.

- قالَ الرّجلُ : قلتُ لها ذلكَ حين ابتدأتْ أو حينَ سكتتْ؟

- فقلْتُ متعجبًا: حينَ سكَتَتْ.

- إنمّا استحسنتُ سُكوتَها أيّها القَاضي.

- فَقبلْتُ شَهادتَه.

وهُنا تبادلَ الجميعُ نظراتٍ دهشةً وانخرطُوا جميعًا فِي الضَّحك، وبادرَهم العلكِي بقولِه : إنّها لفكاهةٌ يا أبَا شبرمةَ وطُرفة قاضٍ .

***

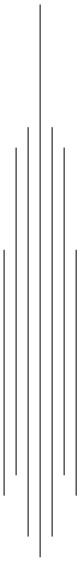

الْعَدْلُ أعزُّ

(٩) الْعَدْلُ أعـزُّ : شريــحُ بنُ الحارثِ

إنّه قدْ بلغَ سنَّ السّابعة بعدَ المائة، وهُو قاضي القضاة في مدينة الكوفة ، شريحُ بنُ الحارث بنُ قيس بنُ الجهمِ الكندي الّذي وقفَ أمامَ الحجاجِ بنِ يوسفَ الثَّقفي يقدّمُ استقالتَه منْ القضـاء ؛ وكانَتْ أولَ مرة يفعلُها بعدَ أنْ قضَى في عهد خمسة خُلفاءَ ـ قائلاً محدثا نفسه:

واللهِ لا أستطيعُ أنْ أكونَ قاضيًا والحجاجُ يحكمُ الكوفةَ .

- الحجاجُ: دعْكَ منْ الاستقالة الآنَ، وقُلْ ليّ : كيفَ وأنتَ في مثلِ ذلكَ العمرِ؟!

- ما الّذي تقصدُه يا حجاجُ من سؤالك ..بـ(كيفَ)؟!

- لقدْ بلغْتُ من السِّنِّ مائةً وسبعةً ومازالْتُ عاقلًا مُحافظًا لقضائكَ.

- حفظْنَاها في الصِّغرِ فحفظَها اللهُ لَنا في الكبرِ.قاصدًا الصحةَ.

- لكنْ مَا سببُ استقالتكَ وأنتَ في هذَا الكمالِ منْ العقلِ وبصحة جيدة؟! اذكرْ ليّ سببا واحدًا.

أخذَ يفكرَ فيما يجيبهُ ، أيذكرَ السّببَ الحقيقي في كَونه واليَا علَى الكُوفة، أمْ يذكرَ له سببَا آخرَا ، وليكنْ كبرَ السِّنِّ.

في تلك اللَّحظة ، وكأنَّ شَريطًا منْ الذّكريات يستعرضُهُ عقلُه أمامَ ذهنه ؛ ليعودَ به إلى بعض المواقف.

أخذَ يتذكّرَ (القافلةَ، في عمرِ الرّابعة أو الخامسة ، حينَما اصطحبَهُ أبُوه في سفرٍ. وفي طريقهم معَ القافلة، رفضَ الأطفالُ المرافقُون لهم اللّعبَ معُه. فأعرضَ عنهم؛ ليلعبَ وحيدًا، فرآه أبوه بعيدًا عنْ القافلة فخافَ أنْ يخطفَه قُطّاعُ الطّريقِ، فنهرَهُ. فسمعَها الغلمانُ المرافقُون لَه فضحكُوا عليه ثُمّ قالُوا لَه: لنلعبَ معكَ، قِفْ حيثُما كنْتَ، وسنختبئُ ثمّ نأتيكَ ... ذهبَوا إلى أبيه يخبرُونه أنّه عصَاه. فضربَه أبُوه، ولمْ يقدرْ على أنْ يُدافعَ عَنْ نفسه، يُقسمُ لأبيه أنّه مظلومٌ ولا يجدُ الدّليلَ الثّابتَ.. فيستمرّ في ضَربِه. فأثّرَ فيهَ أنّ المظلومَ يحتاجُ إلى الإنصاف عندَمَا لا يجدُ شاهدًا ولا دليلاً، وتأثّر فيما بعد بقوله تَعالى:

[" فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ "].

(الحج ٦٩)

تذكَّرَ حينَما والاه عمرَ بنُ الخطابِ القضاءَ نتيجةً لموقف عمرَ بنِ الخطابِ حينَما اشترَى فرسًا ودفعَ ثمنَه، وجدَ فيه بعدَها بقليلٍ عيبًا أنّه يعرجُ.

- قالَ البائعُ الأعرابي: إنّه كانَ سليمًا.

- ردّ أميرُ المؤمنين عمرَ: اختر مَنْ شئتَ ليحكمَ في الأمرِ.

فاختارَ الأعرابيّ شريحاً. ولمْ يعرفْهُ عمرَ، فدعَاه إلى بيته ليحكمَ فرفضَ شريحُ.

- قالَ شريحُ لعمرَ : خُذْ ما ابتعْتَ أو ردّ ما اشتريتَ .

- فردّ عمرَ : واللهُ هَكَذا القَضَاء ـ قولٌ فصلٌ وحكمٌ عدلٌ .

- فسألَه عمرَ : منْ أينَ تعلّمْتَ العدلَ؟!

- منْ سورة(ص).

- وماذَا فيها ؟! .

- فأجابَه بقوله تَعالى: (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ [٢١] إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ [٢٢] إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ [٢٣]

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ [٢٤] فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ [٢٥])

تذكّرَ تفسيرَهُ لأمرِ داودَ أنّ الضيفين لمّا تسوّرا المحرابَ لمْ يكنْ مستعدّاً للقضاء ففزعَ منهما فلمْ يأتِ بالحكمِ الصّحيحِ.

تذكَّرَ طلبَه من عمرَ أنّه لابدّ منْ دارٍ متخصّصةٍ مستقلة للقضاء .

وكانَ قبلَها القاضيُ يحكمُ منْ دارِه. وهنالكَ ولّاه عمرَ قضاءَ الكُوفة قائلاً : اذهبْ فقدْ ولّيتك قضاءَ الكوفة .

تذكَّر وصيةَ عمرَ لَه: إذَا أتاكَ أمرٌ في كتابِ اللهِ، فأقضِ به، فإنْ لم يكنْ في كتابِ اللهِ وكانَ في سُنة رسولِ اللهِ فاقضِ به، فإنْ لمْ يكنْ فيهما فاقضِ بما قضى به أئمةُ الهدَى ، فإنْ لم يكنْ فأنتَ بالخيارِ إنْ شئتَ تجتهدُ برأيكَ، وإنْ شئتَ تؤامرني ولا أرَى مؤامرتَك إياي إلا أسلمُ لكَ".

أخذَ يستعرضُ منْ حياته مَا فيها منْ مواقفَ ممتلئة بأحداث عظيمة تستدلُّ منْها على حكمته وشجاعته ، ومنْها :

تذكّر كيفَ مكثَ في قضاء الكوفة - بدايةً من عمرِه في الـ٤٧ ـ لمدة ٦٠ سنةً هناكَ حتّى سن الـ١٠٧،وكيفَ تفردَّ حينما كتبَ فوقَ مجلسه: إنّ الظَّالمَ وإنْ حكمْتَ لَه ينتظرَ العقابَ. وإنّ المظلومَ وإنْ حكمتَ عليه ينتظرَ الإنصافَ .

تذكَّر حينما نازعَ عليَ بنَ أبي طالبَ وهُو أميرُ المؤمنين معَ يهودي علَى درعٍ، فاحتكَما إليه.

- يَا أميرَ المؤمنين هلْ منْ بينة.

- نعمْ.. الحسنُ ابني يشهدُ أنَّ الدّرعَ درعي .

- يا أميرَ المؤمنين ، شهادةُ الابنِ لا تجوزُ.

- سبحانَ اللهِ رجلٌ منْ أهلِ الجنة لا تجوزُ شهادتُه؟

- يا أميرَ المؤمنين ، ذلكَ في الآخرة، أمّا في الدّنيا فلا تجوزُ شهادةُ الابنِ لأبيه.

- صدقْتَ ، الدرعُ لليهودي.

-فقالَ اليهودي: أميرَ المؤمنين قدمني إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه! أشهدُ أنَّ هذَا الدِّينَ على الحقِّ، وأشهدُ أنَّ لا إلهَ إلا اللهُ

وأشهُد أن محمداً رسولُ الله، وأنَّ الدرعَ درعُك يا أميرَ المؤمنين، سقطَ منكَ ليلاً. فأهدَاه أميرُ المؤمنين الدّرعَ

تذكَّر موقفَه معَ الشّعبِي حينما كانَ جالساً معهُ إذْ دخلَتْ عليهما امرأةٌ تشتكِي زوجَها وهو غائبٌ وتبكِي بكاءَ شديداً.

- فقالَ الشّعبي: أصلحَكِ اللهُ ما أرَاها إلا مظلومة مأخوذاً حقُّها

- ومَا علمُك؟

-قلْتُ لشدة بكائها وكثرة دموعها.

- لا تفعلْ إلا بعدَ أن تتبيّن أمرَها، فإنّ إخوةَ يوسفَ جاؤوا أباهم عَشاء يبكُون وهُم له ظَالمُون

تذكَّرَ كيفَ كانَ يُقيمُ الشهودَ ، بالسّؤالِ عنهم في الأسواقِ ، وفي المدينة ، وإذَا أحسّ أنّهم يكذبُون قالَ لهم : أنَا سأقضي لكَ، وأظنّك كذّاب، لكنْ لا أستطيعَ أنْ أحكمَ بالظّنّ، والشّهود معكَ، لكنْ اعلمْ أنّ حُكمي لكَ لا يحوّل الباطلَ حقّاً ولا الحقّ باطلاً.

وستقفُ بين يدي الله يومَ القيامة، ويُقرؤه المكتوبَ أعلَى المحكمة السالفَ ذكرَه.

وتذكّره حينما اختصمَ إليه ابنُه فأمرَ بحبسه قائلًا له: إنّك يا بنيّ أعزّ عليّ من أمثالهم، لكنْ العدلَ أعزّ عليّ منك.

وهنا استفاقَ من تذكّراته على صوت يناديه ، إنّه صوتُ الحجاج:

– يا شريحُ أين ذهبتَ بذهنكَ ؟! إني دعوتَك لذكرِ سببٍ واحد يقنعني أنْ تقدّمَ استقالتك.

- يا واليا للكوفة ، لقدْ بلغْتُ منْ العمرِ عتيّا ، وأخشَى أنْ أصابَ في إقامة العدلِ حيثُ عدلِ يومًا أفضلَ من عبادة ستين سنةً.

الحجاجُ : صدقتَ يا شريحُ لقد عفيناك من القضاء.

يخرجُ شريحُ من قصرِ الوالي وكأنّه كانَ مقيدًا مسجونًا قد نالَ حريتَه.

***

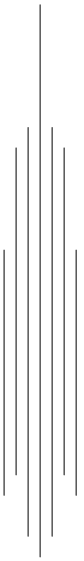

ابنٌ قاضِي الجبلِ

(١٠) ابنُ قاضي الجبل :علاء الدين الحجاوي

في اليوم الحادي عشر من شهر ذي الحجة لسنة سبعمائة وواحد وسبعين قَدِم الشام القاضي علاء الدين الحجاوي من القاهرة، متوليًا القضاء عوضاً عن القاضي أحمد بن الحسن شرف الدين بن قاضي الجبل،بعد وفاته بخمسة أشهر. يبدو أن هذا المنصب قد أكسبه كراهية الآخرين ومعاداتهم، و شمت به عدوه.فأراد القاضي علاء الدين الحجاوي أن يعرف سبب بُعدَ الناس عن مجلسه ،وشماتة الأعداء فيه، فسأل ابن كثير عن ذلك، فأجابه:

إن سبب ذلك الخلاف الذي وقع بينه وبين المنتسبين لمذهب الإمام أحمد بن حنبل حول أنه منع ذبح الجاموس في الصالحية .

كما أنه اختلف مع علماء المذهب في بعض المسائل مثل:

التصرف في الوقت للمصلحة الذي ذهب إلى جوازه، ومنعه الحنابلة في وقته، ويبدو أن هذا الأمر قد جلب له كراهية الحنابلة الذين قد يرون أنه ذهب إلى ما لا يجيزه مذهب الإمام أحمد في هذه الأمور.

-ثم تقدم للحديث تاج الدين السبكي: لاتنسى أنك اعتليت منصب القضاء بعد شخصية أحبها الناس ، وهو أبو العباس، أحمد

بن الحسن بن عبد الله بن أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة، الذي اُشتهر بـ(ابن قاضي الجبل أو ابن شيخ الجبل)، و هو عالم مسلم

وفقيه حنبلي، انتهت إليه رئاسة المذهب، وكان مصاحباً لابن تيمية، سمع منه وتفقه به وبغيره.

-القاضي علاء الدين : ولماذا كُني (بابن قاضي الجبل)؟

-قال محمد بن عبد الهادي المقدسي:كان أبوه شرف الدين أبو الفضل قاضي القضاة في دمشق ، وسُمي بابن قاضي الجبل لأن جده كان صاحب المدرسة المشهورة في جبل قاسيون.

- القاضي علاء الدين: حدثوني أكثر عن الرجل.

- قال محمد بن عبد الهادي المقدسي: إنه من طلبة العلم في سن مبكرة، فهو من أسرة اشتهرت بالعلم، والصلاح والتقوى،وكانوا في معظمهم علماء، فتعلم النحو واللغة والأصول والمنطق والحديث والفقه، كما أن ملازمته لابن تيمية أغنته عن التردد على كثير من العلماء؛ وأذن له في الإفتاء فأفتى في شيبته، وسمع من غيره وفي مشايخه كثرة، ثم طلب في آخر عمره إلى مصر ليدرس بمدرسة السلطان حسن وأقام بها مدة، وأخذوا عنه، ورَأَسَ على أقرانه. وولي مشيخة سعيد السعداء، وأقبل عليه أهل مصر وأخذوا عنه العلم، ثم عاد إ لى الشام وأقام بها مدة وأخذ يُدرِّس ويفتي

- القاضي علاء الدين: وكيف تولى القضاء؟!

-تاج الدين السبكي: تولى قضاء الحنابلة بدمشق في يوم الثلاثاء الثامن من رمضان من عوضاً عن جلال الدين يوسف بن محمد بن عبد الله المرداوي، وحُمِدَت سيرته، واستمر فيه حتى وفاته في شهر رجب من عام٧٧١ واحد وسبعين وسبعمائة ببلاد الشام.

- القاضي علاء الدين: وما أهم المواقف التي مرّ بها هنا؟!

-محمد بن عبد الهادي المقدسي: كان ابن قاضي الجبل على علاقة قوية مع ابن قيم الجوزية ومعي، وكان يتباحث معهما في المسائل، لقيه تاج الدين السبكي في هذا اللقاء،فقال له السبكي:

- يا مولانا لما رأيناكم من بعيد حسبناكم يهوداً.

-فقال ابن قاضي الجبل: ولكنا لما رأيناكم حسبناكم مسلمين، فندم السبكي على ما قال.

هكذا يا علاء الدين كان يعامل الناس وهكذا جذب الناس إليه بعلمه وحسن خلقه.

***

الفهرس

مقدمة ٥

(١) حِكْمَةُ قَاضٍ : اِبْنُ الْعَدِيمِ..... ٩

(٢) تَدبيرٌ بليلٍ : إِياسُ بنُ معاويةَ ١٥

(٣) شَجَاعةُ قاضٍ: الشَّيبانـي ٢٣

(٤) نِعْمَ القَاضِي أَنتَ: كَعْبُ بنُ سُور..... ٣٣

(٥) سُطانُ القُضاةِ والعلماءِ: العزُّ بنُ عبدِالسلامِ ٣٩

(٦) قاضِي القضاةِ:أبُو يوسف يعقوب بن إبراهيم ٤٥

(٧) أقضَى القضاةِ وشَاهنشاه: اَلْمَاوردي ٥٥

(٨) قَبَلْتُ شِهَادَتَهُ : أَبُو شِبْرمةَ ٦١

(٩) الْعَدْلُ أَعزُّ : شريحُ بنُ الحارثِ ٦٧

(١٠) ابنُ قاضي الجبل :علاء الدين الحجاوي..... ٧٧

الفهرس..... ٨٠

☆☆☆